

فاعلية النسق الثقافي في نماذج من المجموعة القصصية القصيرة جدا (سيد

المفاتيح) لحسين المناصرة

The effectiveness of the cultural system in examples from the very short story collection (Master of the Keys) by Hussein Al-Manasra

* - د. فتحة مجمم

* - مخبر الدراسات التراثية

* - جامعة الإخوة منتوري قسنطينة 1 - (الجزائر).

* fatihamdj30@gmail.com

تاريخ القبول: 2024/11/15

تاريخ الإرسال: 2024/07/11

الملخص:

يحاول هذا البحث تسليط الضوء على كيفية مقارنة النص الأدبي في إطار معايير ومعاليم النقد الثقافي، ومدى نجاح الدراسات الثقافية والنقد الثقافي في فهم النصوص الإبداعية وكشف المضمر الذي لم تستطع باقي المناهج النقدية الولوج إليه. وقد تمّ اختيار نماذج قصصية للقصص "حسين المناصرة" (سيد المفاتيح) ووضعها تحت مجهر الآليات النقدية للنقد الثقافي، وذلك لمعرفة مدى مطاوعة هذه النصوص لهذا الطرح النقدي الجديد، واستطاعتها التوصل بأنساقها المضمر لكشف المسكوت والمضمر فيها.

الكلمات المفتاحية: النص الأدبي، النقد الثقافي، المضمر، التحليل، النسق.

Abstract:

This research attempts to shed light on how to approach literary texts within the framework of the standards and parameters of cultural criticism, and the extent to which cultural studies and cultural criticism have succeeded in understanding creative texts and uncovering the hidden meanings that other critical approaches have been unable to penetrate. Examples of short stories by the author Hussein Al-Manasra (Master of Keys) were selected and placed under the microscope of the critical mechanisms of cultural criticism. This study aims to determine the extent to which these texts are receptive to this new critical approach and their ability to utilize their hidden patterns to uncover the unspoken and implicit within them.

Keywords: Literary text, cultural criticism, implicit, analysis, system.

مدخل:

شهدت الساحة النقدية مؤخرًا ظهور عدّة مناهج ونشاطات فكرية تزامن ظهورها مع التطور المعرفي والعلمي، إضافة إلى التطور الكبير الذي عرفتّه النصوص الإبداعية وذلك بانتقالها من سلطة النص المكتوب إلى سلطة النصّ البصري الفنّي والثقافي، وهذه الصورة الجديدة للأدب أفرزتها عدّة مظاهر (ثقافية وسياسية وفكرية واجتماعية)، ليصبح النص الأدبي على هذا الأساس تركيبة مكونة من مداميك عدّة بنى مختلفة الأنساق، وعليه أخذت المناهج النقدية على عاتقها مهمة تفكيك النص وتقويضه على أساس طبيعة معماره.

لم يعد النص الأدبي اليوم مجرد كلمات تُرسم في أفق التلقي السمعّي والبصري، بل صار عالمًا لامتناهيا من الإشارات واللغات دخل بها أفق التلقي الثقافي وما وراء اللغوي، والنقد الأدبي لم يعد قادرًا على الإحاطة بكل فوايزر و التواءات النص الأدبي لمقاربة مسارات التشكل فيه، لذلك أضحي لزامًا الإتيان ببديل نقدي آخر يستطيع مقاربة هذا التشكيل الإبداعي الجديد والمتحول مع التغيرات المعرفية والتكنولوجية، وفي ظل هذه الظروف التي أعجزت النقاد في استقراء بعض النصوص الأدبية، ظهر في الساحة النقدية نشاط فكري أكثر عمقا وشمولية من المناهج النقدية السياقية و النسقية التي قاربت النصّ بحذر وتحفظ، حيث جاء لتثسيم مقولات النظريات التي قيدت النص الإبداعي وقاربته في حدوده خوفًا من كسر نظامه السردي، وهذا النشاط عُرف "بالنقد الثقافي" والذي ظهر في فترة الثمانينيات حين كثرت الخلافات والاختلافات بين النظريات النقدية والمعرفية، وقد تزامن مع وجوده نشاط فكري آخر يمتح من نفس المعطيات الإيديولوجية والفلسفية والفكرية وهي: "الدراسات الثقافية".

1- مفهوم النقد الثقافي:

يعدّ النقد الثقافي " فعالية تستعين بالنظريات والمفاهيم والنظم المعرفية، لوصف وتفسير وتقييم الثقافة وإظهار أوجه الإخفاق والأخطاء فيها، وذلك في محاولة لاستفزاز الأفكار الواعية واللاواعية التي يحملها أفراد المجتمع، وتفحص أسس الثقافة بالاعتماد على إصدار الرأي"⁽¹⁾ فالنقد الثقافي من هذا المنبر يدل على انفتاحه وتوسع معالمة على مختلف المشارب من الثقافات والعلوم ومختلف المعارف، والباحث حين يتعمق في البنية التركيبية

للمجتمع يستعين بآليات النقد الثقافي لتعرية الأنساق المتراكمة والمتخفية من وراء كلّ نظام اجتماعي وثقافي.

وفي معنى آخر للنقد الثقافي نجد أنّه عبارة عن "نشاط أو فعالية تُعنى بالأنساق الثقافية التي تعكس مجموعة من السياقات الثقافية والتاريخية والاجتماعية، والأخلاقية والإنسانية والقيم الحضارية بل حتّى الأنساق الثقافية الدينية والسياسية"⁽²⁾ إنّ النقد الثقافي من هذا المنظور يعتبر نشاطا تحليليا يعمل على تفكيك مختلف الأنساق الخفية في البنى الاجتماعية والسياسية والحضارية... وهذه الممارسة التي يقوم بها هذا النشاط يتوسل بها انطلاقا من اعتماد الثقافة مادة لعمله، فهو كما يرى عبد الله الغدامي "نظرية نقدية ألسنية الأدوات ومعرفية القيمة وثقافية المضمون، ويمكن أن يكون بديلا عن النقد الأدبي الذي لم يعد قادرا على كشف الأنساق الثقافية بسبب تركيزه على جمالية النصوص"⁽³⁾ يقر عبد الله الغدامي في هذا المقام أن النقد الثقافي بدأت جذوره مع اللساني فرديناند دوسوسير Ferdinand de Saussur واستمر نضجه عبر العصور، حتى اصطنع لنفسه مجالا خصبا خاصا به له معالمة وقوانينه ومادته ومرجعياته، وقد أضحت الحاجة إليه ضرورة ماسّة بسبب قصور النقد الأدبي وعجزه عن مقاربة النصّ الأدبي، ولأنّ الأنساق والتراكبات الباطنة التي يحملها النص في جوفه وتحت سطوره لا بد لها من منهج نقدي متعمق يستطيع التناول إلى أغواره والبحث في ما وراء دلالاته، والنص الإبداعي ليس مجرد تقييم وتوصيف لقيمه الجمالية التي تطفو على سطحه، مثلما اشتغل عليه العديد من النقاد والباحثين ما قبل النقد الثقافي، ومن هنا ظهر النقد الثقافي الذي أضفى نشاطا فاعلا في قراءة النصوص وتأويل دلالاتها ومقاصدها في سياق ثقافي.

2- الدراسات الثقافية :

كان للدراسات الثقافية دور كبير في تحريك عجلة النقد الثقافي كونها تتناول "موضوعات تتعلق بالممارسة الثقافية وعلاقتها بالسلطة، وتروم من وراء ذلك إلى اختيار مدى تأثير تلك العلاقات في شكل الممارسات الثقافية، كما أنّه ليست مجرد دراسة للثقافة، فالهدف الرئيس لها فهم الثقافة بجميع أشكالها المركبة والمعقدة، وتحليل السياق الاجتماعي والسياسي في إطار ما هو جلي في حدّ ذاته"⁽⁴⁾ وبالتالي تكون مهمة الدراسات الثقافية تحليل الظواهر الثقافية وفهم توجهاتها وتحولاتها، إضافة إلى أنّ "أفضل ما تفعله الدراسات الثقافية هو في وقوفها على عمليات إنتاج الثقافة وتوزيعها واستهلاكها"⁽⁵⁾ فالنقد الثقافي

والدراسات الثقافية كلاهما يركزان على تحليل مختلف الظواهر الثقافية والاجتماعية، والبحث في مضمرات المسكوت عنه والمخفي.

3-النسق الثقافي:

يعتبر النسق الثقافي بكل بساطة: "مواضعة (اجتماعية، دينية، أخلاقية، استيقية..) في لحظة معينة من تطورها، الوضعية الاجتماعية والتي يقبلها ضمينا المؤلف وجمهوره وهكذا يكون أفق النصوص المفردة والانجازات الفردية هو النص الثقافي"⁽⁶⁾، إذ يعدّ النسق الثقافي من هذا المنظور عبارة عن نظام تواضع عليه مجموعة من الناس، أجمعوا فيه على وجود قوى اجتماعية ودينية وثقافية تحكم العلاقات البشرية وحياتهم، بالتالي يعتبر النسق الثقافي بمثابة جذور تحفر في باطن كل الظواهر الثقافية والحضارية للبشر" فليس للنسق الثقافي بطبيعة الحال وجود مستقل وثابت، إنه يتحقق في نصوص تداعبه أحيانا، وفي الحالات القصوى تشوّهه"⁽⁷⁾ فهو إذن بهذا المفهوم يحوي وظيفتين؛ إمّا إعطاء صورة نموذجية للنص تطاوعه، وإمّا صورة مشوهة تكشف فيه عن قضايا عديدة غير معقولة وهامشية.

من هذا المنطلق نخلص إلى أن الأنساق المضمرة التي يحتويها أي خطاب وأي نص أدبي يحمل في طياته ذهنية ثقافية وفكرية أيديولوجية تفرض سلطتها على جمهورها، فتمارس مهمة الضغط على الجماعة. خاصة وأنّ النص الأدبي انفتح على مختلف الأجناس والفنون والعلوم والمعارف، فصار مثله مثل باقي الخطابات يحمل في باطنه عالما من المضمرات، وخصوصا بعد انفتاحه على المقولات ما بعد الحداثية، ولهذا تحوّل نظامه المألوف من مجرد كلمات خطية إلى خطابات كبرى أصبحت اليوم رهانا للتساؤلات والنقد.

ومن كل ما سبق نخلص إلى أن النص الأدبي اليوم صار أكثر تعقيدا وتشابكا من ذي قبل بسبب المؤثرات والظروف التي مسّت جوهره وطالت معماره، فأضحي لزاما الوقوف عليه بمناهج نقدية أكثر عمقا وشمولية لأجل فهمه والوصول إلى جوانبته، والكشف عن شفراته الخفية، والنقد الثقافي قد يكون كفيلا بقراءة مثل هذه النصوص الممتنعة في سياقها الثقافي والمعرفي، وعليه نجد أن النسق يحمل قيمة جمالية وثقافية كبرى في النصوص ومختلف الخطابات. وللولوج إلى مثل هذه القراءات الثقافية للنصوص الإبداعية اخترنا نصوصا قصصية قصيرة جدًا من مجموعة "سيد المفاتيح" ومقاربتها في إطار مقولات وآليات النقد الثقافي التي سنّها عبد الله الغدّامي، وإجراء مقابلة نقدية بين هذا النشاط الفكري

الجديد والنص المعاصر وذلك للإجابة عن تساؤل جوهري: ما مدى استطاعة النقد الثقافي أن يحيط بالنص الومضة المكثف ويكشف عن أنساقه الداخلية والمبطنة. وفي هذه الدراسة سنحاول تقديم قراءة ثقافية لبعض النماذج القصصية لمجموعة "حسين المناصرة" (سيد المفاتيح).

** النص القصصي "فلسطين"

عكازة كل العاجزين
باسمها يذبحون الأطفال
يعلقون المشانق
يتبجحون بالممانعة
يتعبدون فوق الجثث
ينتهكون الأعراض والأمال
وخطيهم: عن الصهاينة؟⁽⁸⁾

تعد القضية الفلسطينية أعظم قضية تحدث عنها القرطاس والقلم، ولا تزال حتى يومنا هذا قبلة الأدباء؛ ييكونها بشجون ويزدرفون الدموع على دفاتر أشعارهم بحروف دم، لعلّ وعسى يواسون بها جرح فلسطين، ومن الذين وقفوا بصدق كلماتهم مع فلسطين نجد القاص "حسين المناصرة" الذي أراد بصوته أن يصرخ بقوة في أقصوصته "فلسطين" حتى يظلّ صدهاء يقرع طبول الأذان في مشارق الأرض ومغاربها، ولطالما كانت لكلمات الأدباء دورا عظيما في تفعيل القضايا الوطنية والإنسانية.

في هذه القصّة نجد حسين المناصرة قد دقّ ناقوس الخطر على القضية التي صارت طعما للعرب وللحكّام في تمرير مصالحهم تحت غطاء شعارات زائفة يريدون في ظاهرها تحرير فلسطين ولكن ما خفي أعظم.

يشير هذا النص إلى أنّ القضية الفلسطينية صارت عكازًا ومنبرا يتكى عليه كل من أراد لنفسه مصلحة ولغيره ظلما وجورا، حتى الأطفال/البراءة صارت دماؤهم متناثرة هنا وهناك، ولكن القلوب تحجرت فأصبحت تراها ماء بدل الدم، ألمٌ وحزنٌ يعتصر قلب القاص من تجاعيد الحروب التي أكلت من خارطة فلسطين يوما بعد يوم، فلسطين الحزينة والتي أسرت قلبه لم يجد لعزائها سوى الكلمات ليبوح أو ليصرخ، وهو في هذا النص لا يفضح إسرائيل وبني صهيون عن أفعالهم، بقدر ما يفضح الحكّام العرب الذين هانت عليهم

الأرض المقدسة، عميت قلوبهم فصاروا يتعاملون مع الصهاينة بالتجارة، بالتطبيع، بالمسألة، بل والأدهى والأمر أنهم يبجحون ويفتخرون بعلاقاتهم الحميمة مع أعداء المسلمين على العلن وهذه فتنة عظيمة حلتّ ببلاد العرب.

وفي هذا النص نلاحظ أن القاص قد اعتصر فيه عدّة مظاهر فاسدة تفشت في بلاد العرب، من الخيانة وهتك الأرواح البريئة. ولمعرفة مقاصد القصّة لابد من المراوغة ومطاوعة ما وراء كلمات النص، ويمكن تفسير هذه القصص في سياق حادثة ثقافية تستثمر معطيات النقد الثقافي، الملاحظ أنّها استهلت بكلمة فلسطين وهي مفردة عريقة تشي بعدة أنساق ظاهرة ومضمرة، الظاهر والجلي فيها هو أنها قضية العالم الإسلامي والعربي منذ الأزل، والمضمّر فيها أنّ العرب ومنذ سنين خانوها ولعجزهم سلموها لبني صهيون، والمحزن في الأمر أنّها صارت قضية عادية وفقدت صداها جيلا بعد جيل، اختفت المظاهرات التي كانت تقام لأجلها أياما طوال، واختفت المشاركات التضامنية التي كنت تعزّز قوتهم وترفع عن أطفالهم الجوع والألم... ليكمل النص إنتاجه بمقولة: "عكازة العاجزين"، إنّهُ فضح سردي بؤري يكشف تمزق وحدة العرب، حيث تشتت عصبته فلم يستطيعوا قطع يد إسرائيل عن أرض المقدس.

وهذه المدلولات والمؤشرات العلاماتية التي استحضرتها القاص استلّها واستوحاها من عمق الحقائق التاريخية والمشاهد الحيّة عبر عصور فلسطين، وذلك ليجعل نصّه أكثر عمقا وتراكما، ولتحريك نفس القارئ اتجاه القضية المنسية، وإشعال روح المقاومة في نفوس الثوّار من جديد. وتعدّ تلك الاعترافات المبطنّة في النصّ كلمات مشفّرة، جاءت لتحقيق وظيفة نسقية تحمل قيما عديدة موجّهة لخونة القضية من: الذم والسخط و الاشمئزاز والأسى، وكل معاني الحقد اتجاه هؤلاء، بالتالي هذه القيم المخفية مارست سلطتها من تحت النسق العميق والذي تمّ تمريره عبر السردى حتّى وصل إلى ظاهر النصّ كلمات ومضة وسريعة. اصطنعها القاص كطلقة الرصاص حتى أصابت. ويمكن تخريج الأنساق المضمرة التي ساقها القاص في نصّه وحوصلتها فيما يلي:

-نسق الوطن: وفيه اعتراف بأن أرض فلسطين أضحت مجرد مكان مرّ عليه يوما الغضب والثورات لأجل تحريرها، ليتلاشى هذا الصوت يوما بعد يوم وتبقى مجرد قطعة من القلب يبكيها من مازال في قلبه شيء من حب فلسطين.

-نسق الدين: وفيه يقرّ حسين المناصرة بأن المساجد وتجمعات البشر صارت مجرد كلمات وتراتيل تعاد وتكرّر في الخطب بالتنديد والوعيد لبني صهيون، ولكن فعل التحرير ومساندة فلسطين بقي حبرا على ورق.

-نسق السياسة: ويتجلى في الجرم والأفعال الدنيئة التي امتطى بها الحكّام العرب مقاعد السلطة، وذلك بعد وقوفهم على أعناق الفلسطينيين من خلال ضرب قضيتهم عرض التراب ودفعها، والتطبيع والمثاقفة مع اليهود.

-نسق الأنا: وتجلى من خلال صوت القاص وأناته المتألمة التي تخلّلت بين كلماته القصصية حتّى انتهى بنصّه على شاكلة قصيدة حرّة قصيرة جدّا بعمار سردي منكسر، وهذا التشكيل الطباعي آل إليه نصّه من باب الجمالية الفنيّة لنصّه، ومن باب الاختناق السردي الذي تعرّض له النصّ؛ فمرة يضيق السواد ويتسع البياض ومرة يتسع السواد ويضيق البياض وهذه المخاتلة بين التقنيتين كونتا معا تعانقا وتعالقا بين مشاعر القاص وأحاسيس الألم التي تنفسها أرض فلسطين بصعوبة، فحققتا معا معاني تربط بين دلالات التلاشي أو التدلي البطيء لحالة القاص النفسية، والغياب الذي أضمره في غفوته، وبين السقوط الغريب للدوال اللغوية، وطبعا تعتبر تلك المثيرات البصرية في تقطيع الكلمات وكيفية توزيعها على الصّفحة بؤر ارتكاز في تفعيل مسار الحكّي، وتفريق التمثّل البصري للقارئ لهذه الدوال يجعله يلتقطها متفرقة ويحاول لمّ شتاتها لتتكون في ذهنيته فكرة ما، ومثل هذه التشكيلات تتعالق مع ثقافة الفنّ ومختلف الصور الجمالية.

-نسق الألم: كتب القاص هذه القصيدة بحبر الجروح والآلام التي حلّت بفلسطين، فحين يحاول الكلام ووصف ما آلت إليه من إغفال وتهميش من طرف العرب يزيده ذلك ألما أكثر مما يتألّم من قهر الصهاينة لهم.

ويمكن تقديم قراءة ثقافية لهذه القصيدة باعتماد مقولات النقد الثقافي التي وضعها عبد الله الغدّامي.

*-الجملة الثقافية: مرّ نصّ حسين المناصرة عبر ثلاث جمل رئيسية تمثلت في:

-جملة نحوية ذات مدلول دلالي تداولي تمثّل في الكلمات والحروف التي حرّرها على نصّه، فأدّت دورها التركيبي ووظيفتها التعبيرية من توصيف لحالة فلسطين وغدر العرب لها لما قدّموا يد المصافحة لليهود.

-جملة مجازية إيحائية: وتمثلت في الصور البلاغية التي وضعها في نصّه من قتل الأبرياء وهتك الأعراض.

-جملة ثقافية: وتجلّت في التمثيل الثقافي الذي أخفاه القاصّ من وراء القضية من خلال حصيلة من الأنساق المبطنّة تحت الجمل النحوية والمجازية. وتجلّت في العلاقات الدنيئة التي أركعت العرب لخدمة اليهود ناسين أن فلسطين قطعة من قلب البلاد العربية، بل وقطعة من المقدسات العربية الإسلامية التي وجب على العالم العربي صونها والدفاع عنها. والنص من بدايته إلى قفله يقابل بين ثنائيتين متصارعتين: فلسطين والصهاينة. وهذا الامتداد السردي بين البداية والقفلة في عمقه ومعناه يمثل جملة ثقافية.

*-المجاز الكلي للنصّ: من خصائص القصّة القصيرة جدّاً التكتيف والقصر، وهذه التيمات جعلت النص أكثر عمقا وتركيزا وبفعل الإيجاز تصبح المعاني معقّدة ومفعمة بالمجازات والتعابير البلاغية. وهذا النصّ على ما يبدو يحمل صور المجاز وذلك انطلاقا من عتبة العنوان "فلسطين" وهو بهذه الكلمة المفردة يحوي حقولا دلالية تنمّ عن باطن الأنساق الدينية والعرقية والثقافية والاجتماعية والإنسانية التي تعبّر عن التاريخ الطويل لهذا البلد من الاحتلال والمعاناة.

كما نجد في النصّ عدّة مجازات تمثّلت في صور بلاغية مرسلة وممتنعة، أراد منها الكاتب إظهار الحقائق بطريقة غير مباشرة وهذا ما نجده مثلا في قوله:

"باسمها يذبحون الأطفال-يتعبدون فوق الجثث"

فقد أعطى الكاتب بهذا التمثيل صورا شنيعة عن حالة الفلسطينيين ولكن في باطن هذه الصور تختفي أنساقا أيديولوجية وسياسية تفضح المعاملات الدنيئة التي ارتبط بها الحكّام العرب مع بني صهيون، وفلسطين كانت الطعم والضحية.

*-التورية الثقافية: وتجلّت من خلال الكلمات الظاهرة التي وظفها القاص بقوله "فلسطين عكّازة لكل العاجزين" وكأنّ فلسطين بهذه الصورة تبدو هي القوية والباقون يستندون عليها، ولكن من خلف الستار الحقائق صادمة، فالضعيفة والعاجزة التي تبحث عن يد تستند عليه لتقوّي نفسها هي: "فلسطين"، وهذا التلاعب اللغوي والبلاغي بين الكلمات ومعانيها، وبين الوظائف السردية يجعل النص أكثر عمقا وفاعلية نصّية ونسقية، تخدم المضمون وتخدم الجماليات السردية، وتكشف المستور.

4- النسق المضمّر:

يعتبر هذا العنصر بؤرة النصّ المتراكم الذي يحمل في جوهرة العديد من الدلالات والتأويلات، وهو العنصر الفاعل والمحرّك لمسار الحكّي وللعلاقات الداخلية المكونة داخل النصّ، ويعدّ بمثابة وحدة ثقافية دالة تشي بعدة مفرزات اجتماعية سياسية، دينية، أيديولوجية وثقافية.. لتصبح الثقافة من هذا المنبر عبارة عن حقل دلالي واسع يضم الحضارات الإنسانية ومختلف تنظيّماتها الحياتية والأنساق في نصّ واحد قد تكون أحيانا متصارعة، وهذا ما تجلّى في نصّ فلسطين حين تصادم النسق الديني مع النسق السياسي من خلال كثرة التراثيل والخطب التي يقدمها العرب وحكّامهم لتحرير فلسطين، ولكن في المقابل هناك الكثير من الخونة العرب قدموا يد المصافحة لليهود، وما هذا الفعل إلا طعن في ظهر الفلسطينيين غدرا، وهذا ما أدّى إلى خلق صراع بين الذات الساردة والنسق السلطوي للحكّام العرب. وهذا النسق القصصي يحمل صورة خفية يحاول بها تبرير عمل الحكّام، وفي نفس الوقت تتداعى سلطة النسق المضمّر في جوانية النص والذي ينزاح عن المعنى القرّائي الأول ليكشف حقيقة الحكّام العرب المزيفة، لاسيما وأن الكاتب وجّه خطابا قويا للحكّام ألبسه لباس النصيحة رغم الاشمئزاز من أفعالهم، فصوت السارد الداخلي يمثل الصوت الثقافي الجمعي الذي يطمح إلى تعزيز القيم الإنسانية في بلاد العرب وخلق فضاء عربي موحد يشدّ بعضه بعضا في وجه اليهود.

وقد تعجّب الكاتب من الخطب التي طالما تُعرض في الأماكن الدينية والتجمعات الفكرية حول الصهاينة مثلها علامة ثقافية ونسقا مضمرا تجلّت في التعجب والاستغراب من تلك الخطب، والتي قيلت في أفضية حضرها الجماهير وظلّت حبرا على ورق. وبالتالي فهذه الحركة الدائرية بين الحكّام والسلطة واليهود وفلسطين تعدّ حلقة سردية تربطها علاقات الانكسار والاعتبار للقيم الإنسانية، وفلسطين هي بؤرة هذا الانكسار وحلقة مفرغة في خطابات الأسياد الخونة. من هذا المنبر نجد صراعات كامنة بين مختلف الخطابات الأيديولوجية والثقافية، وهنا يحدث التصادم القوي بين الوظائف السردية والفاعلة التي أدت دور التقابل بين صورتين لصوت واحد عربي مساند لفلسطين وفي نفس الوقت مساند للصهاينة، وهذا النسق المضمّر غير الواعي الذي يفضح العرب يسعى النسق الثقافي، وعليه يعد النقد الثقافي من هذا المنبر نشاطا فكريا فاعلا ومفعلا للقضايا الإنسانية والاجتماعية يدعمها وينبذ القيم الفاسدة والظالمة، وقضية فلسطين ليست مجرد كلمات سطرها الكاتب

لينبّه العرب عليها أو يلوم الحكّام العرب على أفعالهم ، بل هي عالم من الثقافات والفلسفات والحضارة العريقة التي ما يزال اليهود يبطلشون من تراثها إلى يومنا هذا وما خفي أعظم.

يحمل نص فلسطين إذن عدّة أنساق خفية تجلّت في سياسة اليهود الشرسة- سياسة الحكّام العرب الدنيئة-وسياسة العالم كله الذي ظلّ سنوات يتفرج على الحروب والدمار بأرض المقدس ولم يحرك ساكنا، ونسق حضاري يحمل كل معاني القيم الكبيرة التي يحملها هذا المكان من تراث وثقافة وأصول عريقة، ونسق ديني يبنى عن وجود قوى خفية وجنود مجنّدة في عالم الغيب تحمي القدس منذ زمن بعيد ولم يسقط.

5- المؤلف المزدوج:

يحتوي النص على مؤلف أدبي يسرد النص بكل صوره وتشكيلاته الجمالية والفنية والإيحائية، وفي المقابل يوجد مؤلف ثقافي يختفي في المكونات الثقافية للمؤلف الحقيقي، وقد لبس ثوب الثقافة ليستعير مختلف القيم الثقافية والحضارية ويزرعها في ثنايا النصّ مهمته الكشف عن الأنساق المضمرّة التي أخفها الجملة اللغوية النحوية وهو ما سمّاه الغدّامي: "الحيل النسقية"⁽⁹⁾ وبهذه الحيل يتم الكشف عن الحقائق المسكوت عنها في قضية فلسطين، ومهمة هذا الإظهار والفضح يقوم به المؤلف الضمني والذي يتمثّل صوت السارد الداخلي، وهو الصوت الباطن الذي يراوغ النسق المضمر محاولا تخريج الحقائق على سطح النص، وهذا الصوت يتعالق و يتماهى مع صوت خفي خافت مع صوت وأنين فلسطين .

يتمثّل السارد هذا الصوت المتألم محاولا ترجمته إلى كلمات مؤثرة يكون لها وقع على نفس القارئ. ففي عبارة "وخطبهم عن الصهاينة" مثلا يبدو حضور صوت القاص المضمر من خلال علامات التعجب والاستغراب التي أبدّاها على هذه الجملة، معتبرا تلك الخطب ترهات المغفلين الذين يتوعدون اليهود ويدعون عليهم ولكن الفعل لتحرير الوطن منها لا يوجد، فتلك الخطب في نظره لا طائل منها.

توجد في النصّ عدّة صور نسقية ظاهرة وباطنة فعلّت القضية الفلسطينية، وكلّها كلمات عميقة تريد إرجاع أرض المقدس لأصحابها وإحياء التاريخ الفلسطيني المجيد وحضارتها العريقة، فهي أرض مقدّسة ولا بد أن يطرد منها الاحتلال، ومثل هذا الأُماني تحمل بين طياتها حالات من الغضب والقلق وعدم الرضا الذي انتاب القاص وهو يكتب، وكلّ كلمة رسمها على خارطة فلسطين تلونت بشيء من الألم والشجون، فخلقت حركة سريعة زعزعت بعض الخفايا ،ولاسيما التلاعب الذي تعرضت له فلسطين بين اليهود والعرب. فكلّ الأنساق

المضمرة التي ساقها القاص في نصّه تبدّت مرة واختفت مرّات أخرى، لتتراجع وتقع في ما وراء السرد، وهي خفايا لم يستطع القاص البوح بها كلّها لأنها عار على الحكّام العرب، وقد وظّف الكاتب بدل الكلام المباشر كلمات مجازية إيحائية جعلت النصّ أكثر نضجا وجمالية وأكثر ترميزا .

** النص القصصي "الشیطان"

لم يتحدث "نصر الشیطان" عن نظام مجرم

عن شبيحة

طائفية

شعبية

طيران حربي يدمّر..ويحرق..ويقتل

عن إرادة شعب

عن إرادة أمة

كعاداته هدّد...وتوعّد...وسلّح....واغتال...(10)

نلاحظ في هذه القصص انطلاقا من العنوان وجود عدّة صور موزّعة على البنية السردية للنصّ والمتمثلة في أنساق ظاهرة تجلّت في صورة كلية تعبّر عن موضوع عام للنصّ، والمتمثّل في ركضات الشیطان، التي تذهب عقول البشر، فيعيدوا عن الصراط المستقيم، ويصير الشیطان هو الدليل لهم، وفي الباطن تبرز مفرزات كانت نتيجة للطريق الذي اختاروه تبعا له، فكانت العواقب تدمير للإنسانية وتمزيق للقيم السامية للإنسان. وعليه تبدو الطبيعة السردية للنسق في النص من الخطابات التي تختفي في ثناياه وذلك انطلاقا من لعبة المراوغة بين الظاهر الأدبي الجمالي، وبين المضمّر النسقي غير الواعي والذي يريد منه الكاتب القصص من نصّه، وهذا ما تجلّى في قصة الشیطان حين وزّع القاص دلالاته الأدبية على سطح النصّ يصف فيه مناصرة لأفعال الشیطان، وفي باطن هذه المناصرة يختفي الكثير من البشر الذين أفسدوا كوكب الأرض بالحروب والدمار، وهذه الجماعة تمثل نسقا ثقافيا مشحونا بحمولة من القيم السياسية والدينية والاجتماعية والإيديولوجية الفاسدة، وما هذه العناصر المترابطة و المتعالقّة فيما بينها إلّا نظام متواصل يتستر تحت غطاء المثاقفة والعلاقات الإنسانية المبنية على السلطة والقوة، فنصّ شیطان إذن نصّ قصصي يتوسّل باللغوي الجمالي ليبرز جماليات القصّة، وحكاية نصرة الشیطان وما تحت هذا الجمالي

تتخاطل لعبة المضمهر حيث الجقائق التي يخفيها الكاتب ما تحت السردى الأدبى، والقراءة الثقافية لمثل هذه النصوص بإمكانها استخراج المشكلات المعقدة والمركبة فى النص والقيم المعارضة للإنسانية، وهذا ما تجلى فى باطن النص من أنساق متعددة كشف عنها الكاتب من خلال تمثيل صورة الشيطان لمن جعل هواه سبيلا، و فى داخل هذه الجملة الثقافية نجد صداما بين نسقين، نسق الجرم الذى يقترفه الكافرون والمفسدون فى الأرض، ونسق خفى يكمن فيه وجود مجموعة من البشر ذواتهم شياطين ناصرتها طوائف وجماهير لأعمالهم الإجرامية، وعليه يمكن اعتبار مثل هذه التلاعبات البلاغية تبئير بالسردى لإخراج زبدة المحكى المقصود به فى النص، من أعماق وباطن المضمهرات النسقية اللاواعية القابعة فى حفرىات النص.

وفى نصّ شيطان تجلّت صورة العالم نسقا متغيرا عن مسار الأخلاق، بسبب كثرة المنازعات والصراعات الإيديولوجية (الطائفية والشعوبية...) وغيرها من الانتماءات السياسية والفكرية التى فكّكت الكوكب إلى مركزى/هامشى، قوى/ضعيف. وصارت السلطة لمن امتلك يد الحرب والسلاح، والكاتب فى هذا السياق يتأسف لما آلت إليه البشرية من طمس لقيم السلام. و تغيير لون الأرض بلون أسود يحاكيه الألم والحزن، ولون آخر أحمر مصبوغا بدماء الأبرياء. وكلّ النص يتمثل فى جملة ثقافية معبرة عن فلسفات الإنسان الذى يتبع هواه فيدمر نفسه والعالم من حوله.

***قصة سيد المفاتيح:

ثمة مفاتيح، وقعت بين يدي أتان(حمار)...فظنّ أنّه امتلك مفاتيح الكون..وربما نسى أو تناسى أنّ الله سبحانه وتعالى مالك الملك.

تمطّى فى كل حين سدّ الأفق بهلوسات نرجسية طاووسية متصابية، هو مقبل على أرذل العمر...نفش ريشه الداكن ونثر رذاذ فم أعجف:"هذه مفاتيحي..أنا سيدها..إقفالها بيدي..أنا..ومن بعدي الطوفان، أمها المنبوذون من رحمتي إلى سجونى..وتناسى أنسى رحمة أرحم الراحمين.سيد المفاتيح هذا أتان بغيبيبييض، التصقت جلوده السمكة العجفاء بعظامه المهترئة، واصفرّ وجهه ولم تعد أحشاؤه الطاوية تتقياً المفاتيح القديمة..فغیر الأقفال ثم صارت له مفاتيح جديدة.

يعتبر هذا النص وعاء لأنساق ثقافية متعددة تجلّت من عتبة العنوان أولا"سيد المفاتيح" هذا العنوان العام الذى سعى به الكاتب مدونته القصصية القصيرة جدّا يشي

بعدة حمولات معرفية ثقافية دينية اجتماعية وسياسية، ويبدو من القراءة الأولى لسطح العنوان أنه يتحدث عن ملك عظيم ملك من الملك الكثير، فكانت له مخازن هو سيد مفاتها، وبالولوج إلى عمق النص تظهر عدة معان دلالية تجلت في الجمل القصصية الاجتماعية والثقافية والتي صاغها القاص بانتظام يصف فيها شخصا تمثل صورة الحمار ولا يعرف عن نفسه أنه حمار، والذات القاصّة أعطته هذا التوصيف لأن الحمار كما يعرف عليه يحمل أثقالا على ظهره و صاحبه يجره أينما شاء وهو لا يستطيع الدفاع عن نفسه والتوقف، فهذا الشخص يبدو أنه ملك من المفاتيح ملكا عظيما حتى صار أعنى لا يرى أمامه سوى نفسه والمفاتيح، يجرّ الخيبرات على ظهره ولا يعلم أنها حمل عليه ثقل، ونسي كما يقول القاص أنّ الله وحده مالك الملك جميعا، وهذا التشكيل اللامتناهي في العطاء والقوة وصورة الغنى لذلك الشخص أعطت صورة نسقية ظاهرة تحكي عن الحالة النفسية والسلوكية للأشخاص كيف كانوا قبل الغنى وكيف أصبحوا أشرارا بعد الرّيح وهم لا يشكرون.

وهذا التمثيل يشي بصورة الجماعة الضالة التي لا تعرف الشكر لله ولا تعرف بأن النعم تزول لمن لا يحمد الله عليها، إضافة إلى حضور أنساق أخرى مضمرة عبّرت عن مكنونات ثقافية للمجتمعات والتي ظلّت منذ قرون بسبب جهلها وتكبرها على خالقها مثلما فعل فرعون وغيره ممن طغى وتجبر، وفي الأخير تبقى عقيدة الإيمان هي الأنسب لحفظ الإنسان من غضب الله تعالى، وفي هذا السياق يتجلّى لنا نسقان متضاربان تمثلاً في الفقر والغنى، وأيضا في نسق الخلود؛ أي أنّ الإنسان الذي امتلك مفاتيح الغنى والقوى يطمع في أن لا يزول ملكه ويظل خالدا، وبالمقابل نسق ضمني أقوى منه يرد عليه وهو النسق الديني العقائدي الذي يقر بملك الله وحده. فالنفس البشرية إذا غلب عليها الهوى والطمع وعميت القلوب التي في الصدور، فأضحت لا ترى سوى نفسها في المدينة الفاضلة والباقي هم العبيد وهي السيد، وفي هذا المنبر تحضر صورة الطبقيّة التي خلّقت في المجتمعات بسبب هلوسة الذات والنجسية وحب المركزية والتعالي على الضعفاء، وهي أنساق اجتماعية مضمرة أراد القاص زحزحة الغطاء عنها ليعرّف القارئ أن أسباب الحروب في العالم، تنبع من صغار الأمور من القيم الاجتماعية والثقافية الفاسدة، من الأنانية النرجسية والتعالي والتكبر وغيرها من قيم الأنا، لتتطور هذه الأنا وتصبح تبحث عن السلطة وحب التملك لكل شيء حتى امتلاك الأشخاص والنظر إليهم نظرة احتقار وعبيد، وهذا ما يعانيه العالم اليوم من

خطرسة العنصرية بين السيد والضعيف وبين الإنسان الأسود والأبيض وبين الإيديولوجيات المختلفة للبشر كلّ ينادي بطائفته وبقائه، ومثل هذه السلوكات يعالجها النقد الثقافي باستقراء الأنساق الباطنة فيها ويعالج المغالطات المتسللة إلى القيم الإنسانية الصالحة والنبيلة، ويحاول تمزيقها وتعديل المعطيات التي أفسدها، باعتبار أن المنظومة البشرية ليست مجرد جماعات بشرية متناثرة هنا وهناك، بل هم كوكب واحد تجمعهم عديد العلاقات المتشابكة رغم الخلافات والاختلافات في الدين والعرق واللغة، تبقى الإنسانية هي المعطى السامي الذي يجمعهم في شخص واحد، هو الشخص الذي يرضى بأن لا يملك المفاتيح أبداً...

يتحدّث النصّ عن أحداث واقعية أودع فيها الكاتب تجربة حياة إنسانية فاسدة طغت على العقلية البشرية، وأفكارهم من حب الذات والسيطرة والسلطة، ومثل هذه الصفات أفسدت سليقة الإنسان الذي كان يوماً بريئاً قبل أن يختلط بالمعوقات والأهواء الشيطانية، فضمّن الكاتب رؤيته ونظريته تلك بين ثنايا نصّه متمثلة في صورة حيوان. وقد وصل الكاتب لتمثيل الإنسان بهذه الصورة بسبب تخليه عن القيم البشرية التي تجعل منه حيواناً عاقلاً والجملة الثقافية في هذا النص تحمل عدّة معاني ودلالات إيحائية تنبئ عن وجود يد تحفر في باطن العقلية العربية دسّت فيها سموها وسلبت منها مبادئ الدين، لتصنع منها تابعا لها ولعقائدها، وهذا ما يفعله الآخر الغربي في العالم العربي والكثير من الدول العربية اتبعت غواية الغرب وصارت منهم.

***-خاتمة:**

من كل ما سبق نخلص إلى أنّ النقد الثقافي قد عوّض النقد الأدبي الذي عجز عن تقديم قراءة عميقة للنصوص الإبداعية كون قراءته لا تتعدى الجمالي البلاغي، ليصبح النقد الثقافي بمثابة فضح للمعوقات المخفية في باطن النصوص بمختلف تمثلاتها الحضارية والثقافية، وعليه نخلص إلى بعض النقاط فيما يأتي:

- كلّ العناصر المترابطة والمتفاعلة بين الفنون والأخلاق وقانون البشرية والمقدسات والعادات والتقاليد عبارة عن أنساق ثقافية تعبّر عمّا اكتسبه الإنسان في الحياة، وهذا ما تحاول القراءات الثقافية استقراءه في باطن النصوص الإبداعية ومختلف الخطابات.

- يعدّ النصّ القصصي واقعة ثقافية تتوسل بجماليات اللغوي والبلاغي للنص لأجل تشكيل سردي نسقي مبطن بعدّة أنساق ثقافية متشعبة المشارب والعوالم.

-يتجلى في النصّ صوت الكاتب الأدبي والصوت النسقي الخفي الذي يمرّ بواسطته الرسالة المشفرة تحت طبقات النص من مختلف الأنساق المضمرة.

-يرى النقد الثقافي في النص وعاء لمختلف الأنساق الثقافية وحيلة يمرّ بها الكاتب الثقافة عبر مسامات نصّه، وبالتالي أضحي النص برؤية النقد الثقافي حدثا تحرّر في سياق العالم كلّهُ والنقد الثقافي نفسه يتوسّل بالثقافة للوصول إلى جوهر النصّ.

-تعتبر القضية الفلسطينية نسقا ثقافيا عريقا في الحضارة والزمن التاريخي الذي أرخ أحداثها، ويعدّ نسق الصهاينة نظاما يهوديا يحفر في النسق الفلسطيني.

-لننسق الثقافي دور فاعل في معرفة الدلالات النسقية الموجودة في الجملة الثقافية والمحملّة بعدّة دلالات تاريخية فلسفية فكرية وثقافية، والنقد الثقافي في هذا السياق يكشف الخلل المتخفي وراء السردثقافي.

-النقد الثقافي مشروع معرفي واسع يضم الحقوق المعرفية المختلفة ليؤسس رؤية واضحة، تقف عند أنساق مضمرة تتحكم في إنتاج الخطاب واستهلاكه وكيفية تأويله، ممّا وسّع أفقه مع استفادته من الدراسات الثقافية في فهم السلوك الثقافي بوصفه نشاطا إنسانيا.

-للدراستات الثقافية والنقد الثقافي دور كبير في كسر مركزية النص والبحث في سيورورة التشكل الداخلي للنصوص، وكشف مساراتها التأويلية المضمرة وهذا ما بدا في نصّ "فلسطين-الشیطان-سيد المفاتيح".

-النقد الثقافي يتعامل مع أنساق مضمرة غير معلن عنها على سطح النصّ، ويتم الكشف عن هذه المضمّرات بواسطة معطيات تجلّت في الوظيفة النسقية-الجملة الثقافية-التورية الثقافية...

-لننسق الثقافي دور فاعل في معرفة الدلالات النسقية الموجودة في الجملة الثقافية والمحملّة بعدة معاني وتأويلات.

-يساهم النقد الثقافي في كشف فاعلية النسق الثقافي المضمّر وقراءة مختلف الإيديولوجيات المتضادة والتمثالات الطبقية والمركزية والسلطوية في ظل مختلف السياقات الثقافية.

-ظهور مختلف صور الفانتاستيك والباروديا ضمن الأنساق الثقافية جاء بها القاص ليسخر من لعبة العرب في مجارة اليهود والغرب، والعواقب تكون ضرا على الإنسان العربي وحضارته.

*من المآخذ التي يمكن أن تؤخذ على النقد الثقافي ما يلي:

-ليس كلّ النصوص الإبداعية تصلح لمقاربة النقد الثقافي، فهناك من النصوص التي تحمل أنساقاً ظاهرة نفسها المخفية في النصوص.

-تركّز الدراسات الثقافية في قراءاتها للنصوص والخطابات على كلّ ما هو ظاهري ومضمّر وهامشي ومركزي، لكن النقد الثقافي يركّز على المضمّر أكثر ونسي أن الجمالي الأدبي للنص له مصوغاته الدلالية والعلاماتية لبناء تركيبية النص ومعانيه.

-النقد الثقافي لا يمكن له الإحاطة بالنصوص الأدبية ومختلف الخطابات دون استعارة آليات ومعطيات التحليل من باقي المناهج النقدية والنشاطات الفكرية الأخرى، كالتفكيكية والسيمائية.

وفي الأخير لا يسعنا إلاّ القول إن النقد الثقافي مهما كانت وظيفته شمولية وعميقة في استقراء النصوص ومختلف الخطابات يبقى عاجزاً أمام بعض النصوص، ولا سيما المتداخلة مع الفنون ومختلف العلوم، وعليه يحتاج النقد الثقافي لنقد آخر أوسع منه وأدق لقراءته وتقييمه وتعديل منظومته الإجرائية والمنطقية. وذلك للفصل بين المنظومات النقدية والمفاهيمية وتحديد مفاصل كل نشاط فكري ونقدي في منظومته دون خلط وتشابك بين المقولات النقدية.

*-الهوامش والإحالات:

1-بسام عبد الكريم: ممارسات النقد الثقافي في الفن العالمي المعاصر، رسالة ماجستير-مجل الفنون الجميلة-جامعة البصرة، وهي جزء من الفنون التشكيلية-رسم، إشراف: جنان محمد أحمد/البصرة، 2018.ص.63

2-المرجع نفسه: ص.5

3-سمير خليل: النقد الثقافي من النص الأدبي إلى الخطاب، دار الجواهري، بغداد، ط1، 2012، ص.92

4-عبد الرحمن عبد الله: النقد الثقافي في الخطاب النقدي العربي-العراق إنموذجاً، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 2013.ص.21

- 5- عبد الله الغدامي: النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربي، المركز الثقافي العربي، لبنان-بيروت، ط2005، 3، ص.18
- 6- عبد الفتاح كليطو: المقامات السرد والأنساق الثقافية، تر: عبد الكريم الشرقاوي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء-المغرب، ط2، 2001، ص.8
- 7- المرجع نفسه: ص.8
- 8- حسين المناصرة: سيد المفاتيح (قصص قصيرة جدًا) شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ط1، 2016، ص.24
- 9- سمير الخليل: دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي-إضاءة توثيقية للمفاهيم الثقافية المتداولة، دار الكتب العلمي، ص.304
- 10- حسين المناصرة: سيد المفاتيح (قصص قصيرة جدًا)، شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ط1، 2016، ص.25
- 11- حسين المناصرة: سيد المفاتيح (قصص قصيرة جدًا)، شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ط1، 2016، ص.8

*- قائمة المصادر والمراجع:

1. بسام عبد الكريم: ممارسات النقد الثقافي في الفن العالمي المعاصر، رسالة ماجستير-مجل الفنون الجميلة-جامعة البصرة، وهي جزء من الفنون التشكيلية-رسم، إشراف: جنان محمد أحمد/البصرة، 2018.
2. حسين المناصرة: سيد المفاتيح (قصص قصيرة جدًا)، شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ط1، 2016.
3. سمير الخليل: دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي-إضاءة توثيقية للمفاهيم الثقافية المتداولة، دار الكتب العلمي.
4. سمير خليل: النقد الثقافي من النص الأدبي إلى الخطاب، دار الجواهري، بغداد، ط1، 2012.

5. عبد الرحمن عبد الله: النقد الثقافي في الخطاب النقدي العربي-العراق إنموذجا، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 2013.
6. عبد الفتاح كليطو: المقامات السرد والأنساق الثقافية، تر: عبد الكريم الشرقاوي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء-المغرب، ط2، 2001.
7. عبد الله الغدامي: النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربي، المركز الثقافي العربي، لبنان-بيروت، ط3، 2005.